أفكار من زمن الحرب «المستمرة»

د. عاطف عطيه

في الذكرى الأربعين للحرب اللبنانية نستذكر مآسيها وأهوالها، ولا نعتبر من نتائجها ومما آلت إليه الأمور في مسارها الطويل. فالحرب اللبنانية كانت مستعرة قبل بداياتها المعروفة في منتصف السبعينيات، تراشقاً كلامياً، واستعدادات عسكرية، وتدريبات قتالية، كما بقيت بعد انتهائها جمراً تحت الرماد. ولا نزال حتى يومنا هذا نعيش في أجوائها، ونتعرض لتداعياتها، ويسقمنا نهجها في التفريق والتوتير والخطف والتقتيل بأساليب مختلفة وبأسماء مختلفة، ومجموعات مختلفة وأنواع أسلحة مختلفة، على مضمون واحد لا يحول ولا يزول، هو الاحساس أوالشعور القاصر عن الوصول إلى التحليل المنطقي المستوي على القاعدة العقلية في النظر إلى الوجود المجتمعي، وإلى الحدث السياسي وما يمكن أن يتأتى منه.

هذا الشعور هو الانتاج الأساسي للانتماء الأهلي بكل تجلياته القرابية والدينية والطائفية والمذهبية والإتنية والمناطقية. وقد ظهر هذا الشعور، ويظهر عادة، في أوقات الأزمات والتوتير، ويخفت في أوقات الهدوء والاستقرار. وقد اصطلحنا على تسميته بالشعور الطائفي؛ وهو الشعور الذي ارتقى إلى مرتبة المنطق العقلاني الذي فلسفه ووضعه سياسيون لبنانيون أساساً لنشوء لبنان الحديث، دولة ونظاماً. وهو بذاته المنشء لكل تبعات الانتماء الطائفي من أعلى الهرم في السلطة إلى القاعدة، وتغلغل في أعماق النسيج المجتمعي العام، وضرب حتى أكثر المقاومين لمنطقه والعاملين على إلغائه، باسم التعامل مع الواقع، والسير في ركابه بغية تغييره من الداخل. فكان أن تغيروا ولم يتغير.

تحضرني هذه الأفكار وأنا أتأمل واقع الحال بعد أربعين سنة من بداية الحرب، ولا أدري لماذا حضرتني حرب البسوس بين تغلب وبكر التي دامت هذه المدة من الزمن في التاريخ العربي. ولكن ما أحس به الآن أن الحرب سرقت من عمري، وعمر أبناء جيلي زهرة شبابنا دون أي مقابل. من جهتي، دخلت فيها شاباً في الخامسة والعشرين، وكنت لا أزال طرياً في الوظيفة العامة وفي التحصيل الجامعي، في الوقت نفسه. وتزوجت وانجبت أولاداً وتدرجت في مراتب الوظيفة وأحلت على التقاعد، والحرب لا تزال دائرة ومستمرة، وإن بأوجه مختلفة ولكن بمضمون واحد. وما يحز في نفسي أنني وأبناء جيلي دخلنا الحرب ونحن على قناعة تامة بحصول التغيير، والولوج إلى لبنان الحديث المتطهر من رواسب الطائفية، والعامل على تأمين المساواة بين المواطنين، وبث روح المواطنية والحس المدني في مفاصل الدولة والمجتمع معاً.

قناعتنا هذه أوصلتنا مرات عدة إلى حافة الموت، قصفاً أو تفجيراً، أو قتلاً، ونحن على تمام الرضى، دون ان يدعونا ذلك إلى ترك هذه المدينة الصابرة. كان أملنا كبيراً، إلا أن الخيبة كانت أكبر. ذلك أننا اعتبرنا أن مفتاح الحياة الحرة الكريمة النضال من أجل قضية. وكنا نعتبر أن هذه القضية تساوي وجودنا، وهي العمل من أجل مجتمع علمي مدني يتساوى فيه المواطنون، ولا يأمن له عيش إلا بالحياة الحرة الكريمة، وذلك بعدم الخضوع إلى أي كان، والإيمان بالاستقلال الاقتصادي والسياسي اللذين يؤمّنان الاستقلال في الموقف والقدرة على اتخاذ القرار. وإذا كانت الحرب في سبيل ذلك فلتكن، والبنيان دائما يقوم على دمار. كنا نؤمن أن استقلال لبنان وبلاد المشرق لا يتمان إلا بتحرير فلسطين. وكانت فلسطين قضيتنا المركزية الأولى. وكنا مستعدين للموت في كل لحظة في سبيل هذه القضية. وقتل منا ومن غيرنا الكثيرون. إلا أن الحرب اتجهت وجهات متعددة، ووصلت إلى ما يثير كل شيء إلا إثارة الحمية لتحرير الأرض والانسان، للوصول إلى المجتمع الذي نريد؛ المجتمع المتطهر من مثالب الطائفية والطائفيين.

وإذا كانت الحرب تنطلق في سبيل قضية، ولا شي غير القضية، وبتسخير كل شيء من أجل القضية، فإن قضية الحرب تحولت إلى قضايا. وتفرعت الحرب إلى حروب، وتحولت الحروب إلى أعمال ومقاولات، وتحول قادة الجبهات إلى رجال أعمال ومقاولين. واستبدل هؤلاء البندقية بالمحفظة وأوراقها. وتحول الرصاص إلى رزم مالية تودع في المصارف، وانقلب المناضلون الذين يدفعون حياتهم ثمنا لكرامة وطنهم، مهما كانت النظرة إليه، إلى مرتزقة يعتاشون من حمل البندقية لحراسة أصحاب الحظوة والنفوذ، وتحول الشهداء إلى مجرد ذكرى يعيشها الأهل دون العالمين، إلا ما ندر. وتكون هذه الذكرى إذا حصلت مجرد إعلام لاستمرارية الأحياء، وإن تعرض ذوو الشهداء لأبشع أنواع المذلة جوعاً وتشرداً وبطالة.

إلا أن ما آلت إليه الأمور في هذا الزمن الرديء، يجعلنا نستذكر بالحنين البالغ تلك الأيام السوداء التي مرت. وأيامنا هذه الأكثر ظلمة وسواداً ترينا رمادية الأيام الغابرة الأقرب إلى البياض، ولو كانت ملطخة بالدم. لقد أرتنا هذه الأيام انفلات الشيطان الطائفي من عقاله جهراً وبلا حياء أو خجل. ذلك ان الأمر لم يقتصر على الصراع السياسي المتمفصل، منذ ما قبل قيام لبنان، على الانتماء الطائفي، بل استُبدلت أدوات الصراع السياسي المتمثلة بالأحزاب غير الطائفية، مضموناً وظاهراً، وبالشخصيات السياسية المؤمنة بأن خراب لبنان متأت من نظامه السياسي؛ استبدلت، أقول، بأدوات سياسية «جديدة وحديثة» لبست الرداء الطائفي جهراً. وصارعت، وتصارع، بانتمائها السياسي الطائفي وبعسكرها الطائفي علناً. وتعمل جميعاً على موجة المساومات وتوزيع الحصص دون أي رادع من أي نوع كان، ولو ادى ذلك إلى تعطيل كل شيء. وتغلغلت المسالك الطائفية، وتتغلغل، في شتى الثنايا، دون أن تترك أي زاوية في لبنان بمعزل عن التأثر. وتجاوز الأمر طائفية السياسة إلى مذهبية الفقه، فاستشرى القتل باسم الدين والطائفة والمذهب، وجعل الناس من أنفسهم ديانين على الآخرين، وكفر بعضهم بعضاً. فصار الواحد منا يحس بأقليته بين جموع غفيرة لا يُعرف لها توجه ولا قرار. فيعيش في ألم لا يعرف مصدره، ويحس بقلق لا يعرف كيفية التخلص منه. وتكاد تتمكن منه الفكرة المرعبة التي توسوس في روعه، وهي أنه أضحى من الأقليات. فتتملكه الرعشة التي تصيب من يحس بعقدة الاضطهاد دون أن يضطهده أحد، فيعيش إما مريضاً أو خائفاً، أو يمّم وجهه شطر الرحيل.

كلامي جاء هكذا. إلا أنني مؤمن بقيامة لبنان، وبعودة الأمن والاستقرار إلى ربوعه. أقول هذا لأنني محكوم بالأمل، ومحكوم أيضاً بفكرة لا تحول ولا تزول، وهي أن لبنان، وبعد تجربة قرنين من الزمن، يموت ويندثر بالطائفية ونظامها السياسي، ويحيا بمجتمع مدني واحد تسوده فكرة الإخاء الوطني، والإيمان بالمواطنية الجامعة لكل أبنائه بصرف النظر عن الانتماءات الأولية لأبنائه، ودون التنكر لها أو إلغائها.

إنه أمل. وما أضيق العيش لولا فسحة الأمل